أول أغسطس سنة ١٩٣٢
ربيع الأول سنة ١٣٥١

المعرفة

الجزء الرابع
السنة الثانية

مجلة — شهرية — جامعة
لصاحبها وناشرها ومحررها المسئول
عبد العزيز الإسلامبولي

المجلد الثالث — شعارها : اعرف نفسك بنفسك — العدد ١٦

المنفلوطي : كاتب العاطفة والوجدان

[كتبت لمناسبة اعتزام خريجي الجامعة المصرية إحياء ذكراه]

فكرة البحث

اعتزم فريق من خريجي الجامعة الأوفياء إحياء ذكرى فقيد الأدب العربي ، المرحوم السيد مصطفى لطفي المنفلوطي ، لمناسبة مرور ثمانية أعوام على وفاته . وليس من شك في أن تلك الفكرة — التي اعتزم خريجو الجامعة إنفاذها — فكرة جليلة ، جديرة بالذيوع ؛ قمينة بالتشجيع ، لما للمرحوم المنفلوطي من أثر — وأي أثر — في الأدب العربي ، ومن حب — وأي حب — في نفوس طلابه ومريديه .

فمن حق المنفلوطي إذن على طلابه ، وتلاميذه ، والمنتفعين بأدبه ، والمقتفين أثره ، أن يخلدوا ذكرى رجل كانت له اليد الطولى في خلق الأدب المصري ، بل كان له القسط الأوفر في إنشاء « الدراما المصرية » .

فلقد كان المنفلوطي ، منذ بداءة شبابه ، حتى آخر نفس من حياته ، يمثل الدراما ويمثله أدق تمثيل ، فكان يكافح أغلال الحياة بقوة وصبر ، ويناضل أرزاء الأيام بجلد واتئاد ، حتى تكسرت الأصفاد ، وتحطمت الأغلال ، وصمدت إلى جانبه حياة داوية ، من الشهرة الدائمة والرواج المنشود .

وإذا كنا سنقصر الكلام — في إلمامتنا هذه — على عاطفته ، فرجع ذلك إلى حضرات الداعين إلى إحياء ذكراه ، الذين تفضلوا فاختصوا كاتب هذه السطور بتلك الناحية ؛ رغم ما تتطلب من دقة وتحديد ؛ ونحن إذ نحاول الكتابة على المنفلوطي ، فإنما نترسم — في بعض نواحي البحث — أسلوب المنفلوطي ، إحياء لذكرى المنفلوطي .

المرحلة الأولى

يا لها من أيام ! تلك التى استهل بها كاتبنا النابه الخالد حياته ! لقد كانت أياماً عجافاً ؛ عرف فيها « المنفلوطى » كيف يصطنع قسه ، وكيف يلقى على عواطفه شعاعا من الخير ، وضوءاً من الحياة . !

لقد كانت أياماً ثقالا ، لم تتمزق فيها أواصر الشقاء ، ولم يقوضها معول الأمل ، ولكن قوضها وأتى عليها معول الطموح .

وكانت أياماً شداداً ، ركن المنفلوطى فيها إلى تلك الحجرة الهادئة الضيقة المظلمة التى لا تطل على الفناء الفخم ، ولا على الباحة الرحيبة ، ولا على السرحة الفينانة ، ولا على المشاهد الفتانة ، وإنما كانت تطل على أخوص ضيق ، كأخوص القطاة ، هو زقاق يتفرع من أحد الشوارع الباقية حتى اليوم فى « كفر الطماعين » .

ولم يكن المنفلوطى منذ كان يطلب العلم فى الأزهر ليرضى فى شأن من شؤونه بما يرضى به ضعاف النفوس ، أو صغار الأحلام ، أولئك الذين يحمومون إلى أنفسهم أواصر الزلفى بالبارزين فى سجل المال وحده ، وإنما بقى منذ بداءة حياته ، حتى آخر مرحلة من مراحل حياته ، يجالد الصغار ، ويناضل الضعة ، ويتألب على السفاسف ، ويزيد فى خلقه مكانة ، وفى كبريائه قوة ، وفى عزة نفسه منعة ، وفى تمرده على الحادثات عزماً وانطلاقاً .

وهكذا عاش الرجل ، وهكذا مات الرجل ، دون أن يدنس يده بشىء ، أو يصعر خده لانسان ، أو يريق ماء وجهه لمطعم ، أو يبذل كرامته نهباً مقسماً بين الناس .

لهذا لم تتحرك روح الآلام فى مصر حركة عنيفة لفقدان أديب نابه كما تحركت يوم مات المنفلوطى ، ذلكم الرجل الذى عاش ليؤدى رسالته إلى الناس فى حق ويقين ، وليوحى إليهم حقائق الحياة الصريحة ، واضعاً أيديهم على مواطن الأسى والشجون .

بؤس وشقاء ...

ترى أى سر هائل كانت تكتنزه نفس المنفلوطى الفتية ؟ وأية مأساة عنيفة تلك التى استهل بها حياته ، وما زال يافعاً صبياً ؟ بل أى حزن شامل ذلك الذى كانت تتفجر ينابيعه فى مسارب دمه الفوار ؟ وأى أسى مكتوم كانت تختزنه نفسه لتقلع به على الناس لاحفاً من اللظى وصيباً من الدموع ! ؟

هل من سر لهذا كله غير البؤس والشقاء ؟ أجل ! ! إنه البؤس وإنه الشقاء ، وحسبهما كارثة أو مصيبة تقدح الأعصاب ، وتزجى الأوصاب ، وتدفع إلى النفس المصاب ، وحسبهما عاصفة هوجاء لا تخمد أوارها حتى تكون ضحيتها رمماً على الثرى ، وحطاماً منتثراً ، ورجاماً مبعثراً ! !

هكذا كانت حياة المنفلوطى فى مختلف مراحلها — على ما أعتقد — صورة واحدة تجتمع إليها ألوان لا تستطيعها بدالصناع الفنان ، ولا تستطيعها الريشة الماهرة المجدية المنتجة الآخاذة .

توجع وأنين ...

وهذه الصورة ، ماذا تكون ؟

إنها الصورة التى أدرك الشرق العربى منها كيف ينتهى الدمع إلى الصميم ، وكيف تذوب القلوب المتحجرة فى بوتقة النار المحرقة،تلك نار الشجن الهائل الحافل ؛ التى استطاع المنفلوطى أن يتدفق منه على قراء العربية صيباً جزيلا،فيه تحقيق للجوانب العابسة ، وفيه تألب على كل جانب مشرق وناحية طروب .

ومن حق المنفلوطى أن تخلده هذه الخاصة التى تفرد بها بين كتاب العربية جميعاً،وأعنى بها خاصة التوجع والأنين ؛ ومن حقه أيضا أن يظل إلى الأبد موضعا لإكبار قرائه ، وتمجيدهم لذكراه ، وترحمهم على حياته التى غذت فيهم ناحية الرحمة ، وأتاحت لهم أن يركنوا إلى قرار الحنان .

وإذا كانت هـذه الصورة الباقية قد أثارت فى نفوس المتأدبين حالة من التوجع ، أو إذا كانت هذه الصورة قد أثارت فى نفوس القراء حالة أخرى من الرضى والقناعة والاطمئنان ، فإنها قد أثارت فى الناس جميعاً — متأدبين وغير متأدبين — روح التمرد على تلك العروض الفانية ، عروض اللذاذات التى تفيض عن نعماء الدنيا ورغد العيش وهناءة الأيام .

وللمنفلوطى أن يخلد كل الخلد ، وأن يبقى على الزمن ؛ لأن قلمه المتاره القدير الجوال ، وأسلوبه الفصيح المريح ، قد مهدا لعواطف الناس أن تخلص من الغلظة ، وتنأى عن مواطن التحجر،وتتعهد البر والرحمة،وترضى بما فى الحياة من آلام،وتقنع بما فيها من آمال ، وما يعج به بحرها من أوجاع ، وما يقوم على شاطئيه من أشواك .

ألوان العاطفة ...

وبعد ، فأى دموع سخينة تلك التى سحها على صفحات كتبه سحاً أولئك الذين يقرءون رسائل المنفلوطى ؟ ! بل أى عبرات تلك التى سكبوها على « عبراته » سكباً ؟

لقد تقرحت جفونهم من الدمع ، ولقد مهدوا لآلامهم أن تمتزج بتلك الآلام التى حلها كاتبنا الأشهر كواهل الأبطال فى قصصه ، وكواهل الصفحات فى « نظراته » .

ولقد راحوا بعدئذ يتساءلون : كيف رضى هذا القلم الجبار أن يقتنع بالصور المظلمة من هذه الدنيا ، وأن يدفع عن نفسه كل جانب مشرق بسام ؟

ولـكن : قليلا من الأناة أيها الذين ذرفتم الدمع كلما قرأتم شيئاً لـكاتبنا العظيم .

إنه كان يسترســل فى كتاباته على سياق نفسه ، وعلى ما توحى إليه عواطفه الخاصة ، وأحاسيسه الرقيقة ، ومشاعره التى يدق فيها كل حس،حتى لتكون الهمسة والأنة، حين تصدر عن وجدانه ، عاصفة داوية ، وريحاً صرصراً عاتية .

كان يأخذ أسلوبه عن عاطفته فحسب ، فكان هذا الأسلوب السهل اللين صورة من الدمعة التى تنحدر فى أناة ، بينما هى جماع النار والألم،جماع الحرارة والفجيعة،جماع المأساة والعنف؛وكان هذا « الموضوع » الذى يتخيره دائمًا ، موضوع البؤس الـكامل ، لأن البؤس كثيراً ما خلق

الزوبعة فى النفس ، وكثيراً ما أتاح الصخب للحس ، وكثيراً ما دفع المعركة بين الحياة والموت إلى كل وجدان .

فهل كان المنفلوطى بائساً حقاً ؟ وهل كان أسلوبه صورة من عواطفه ؟ وهل كان المنفلوطى رجلا من رجالات التمائم ، وبقية من زمرة المنجمين ، حتى يتفق له هذا النفاذ إلى دخائل المشاعر الدقيقة التى تحتضنها نفوس الناس ، وتضن بها على البذل ، وتحرص عليها من لوثة الشيوع ، وتختزنها خوف الذيوع ؟

أجل ! إنه كان بائساً ، ولكنه لم يكن من أولئك الذين اخترمت بصيرتهم حجب الغيب ، وإنما كان من هؤلاء الذين تسبح نظراتهم فى مجرى عواطفهم . . . فهو يحس ، ويدق فيه الاحساس والشعور ، حتى ليسمع أنة المصدور فى جوة الأرض ، كما يسمع صرخة التائه على الأديم الفسيح .

إنه لم يكن من أولئك الذين احتملهم سحر الأحجبة والتعاويذ ، وإنما كان رجلا يعنى بأوضاع نفسه وألوان حياته . . . لأنه يؤمن ملء قلبه أن هذه الأوضاع وتلك الألوان ، لها فى كل جانب من الدنيا نظير مستور وشبيه مقبور .

وإذا كان « المنفلوطى » قد مهد للبائسين سبيلا إلى الصبر ، ووسيلة إلى التعلل ، وناحية من نواحى السلوان ، فان حياته فى مستهلها هى التى أتاحت لصوته أن يكون نافذ النبرات ، قوى الأداء ، سليم التوقيع ، رائع النغم ، داوياً حين يدوى ، هادئاً حين يريد الهدوء ، ساكناً حين يشاء صاحبه أن يكون ساكناً ، حافلا بالدعة والمرح والايناس !

خصائص رسالته . . .

لقد نجح المنفلوطى فى أداء رسالته الحقة نجاحاً منقطع النظير ، فاليه وحده يعود ابتكار الأسلوب الجزل السهل الممتنع الجذاب ، وإليه وحده يعود توجيه النثر العربى فى العهد الحديث توجيهاً فنياً متزناً طليقاً من شوائب الكنة والعى والمهاترة والاستخذاء والجمود والركود ، وإليه وحده يعود الفضل الحافل فى تمزيق آخر صفحة من صفحات الركاكة ، التى كانت جماع ما يلوك النقادة فى كتابنا الذين جمعوا بين رقدة القرن التاسع عشر ، ونهضة القرن العشرين .

إلى كاتبنا وحده تعود هذه الفضائل ، وليست هى كل ما تميز به على ما فيها من عظمة كل العظمة ، وعلى ما فيها من رواء كل الرواء ، فقد تميز الرجل بخصائص الرجل الكامل ، هذه الخصائص التى قلما يستطيع أحد أن يجمعها إلى نفسه جملة واحدة ، وحشداً واحداً .

وإنه ليقمن بنا أن نطلق الضوء على هذه الخصائص ، فنحصيها أول الأمر ، ثم نعقب على هذا الاحصاء بتحقيق دقيق لآثرها عليه ، وأثرها على قرائه ، وأثرها بعد ذلك على الأدب العربى ، (١) أسلوباً وتفكيراً .

إيمان ويقين . . .

وما من ريب فى أن بداءة هذه الخصائص ، إنما هى إيمان المنفلوطى إيماناً هو فوق اليقين ؛

(١) أرجأنا بحث هذه النقطة الى فرصة أخرى .

وفوق الصراحة الجامحة بما يصدر عن قلمه ، وما ينتج عن يراعته . ولكى تدرك مبلغ ما فى هذه الخاصة من روعة ، ومقدار ما تتعهده من خطر ، يجدر بنا أن نحدثك بأن جمهرة من كتابنا كثيراً ما يوزعون فى رسائلهم أفكاراً مستحدثة لا يستطيع أحد منهم أن يستطيبها لنفسه ، أو ينشدها لحياته الخاصة ، كأن يلح أحدهم - مثلا - فى طلب الحرية للنساء ، وحرية السفور ، وحرية التمتع بالحق المدنى كاملا غير منقوص ، حتى إذا دعى مع زوجه إلى حفل مشهود ، تألب على الداعين ، ونهض إلى آذانهم يقرع فيها احتجاجه الصارخ قرعاً ، لأنهم ذهبوا فى الزراية بتقاليد بيته مذهبا لا قبل له باحتماله ، ولا مفر له من أن يحتج عليه احتجاجا شديداً .

ولكن المنفلوطى كان لا يرسل الفكرة فى رسائله إلا بعد أن يؤمن بها أعمق الايمان ، وأخلص الايمان ، فهو إذن رجل صادق الوحى ، صادق التقدير لعواطفه، صادق الود لنفسه ، صادق الوفاء لنزعاته وخوالجه وهواجسه جميعا .

سلطانه على قرائه . . .

وإلى هذه الخاصة — على خطرها — تستقبلك فى المنفلوطى خاصة أخرى، ليست بأقل خطراً ، ولا بأهون شأنا ، تلك هى عنايته بإيقاظ الجماهير على ما فيهم من: تناقض فى المدارك، وتباين فى الطبقات ، واختلاف فى الثقافة، وتفاوت فى التهذيب... وهذه العناية منه كانت فى الواقع أبعد ما أتى الرجل ، وأخلد ما خلف بين الناس ، لأنها من نوع قلما يستطيعه الأكثرون .

كانت «نظرات» المنفلوطى ، وكانت «عبراته» ، وكانت هذه القصص التى ترجمها ، كان هذا كله يندفع إلى الجماهير ، فيقرأه الرجل المثقف على أنه هدية لا يتأتى نيلها إلا لرجل مثقف، ويقرأه التلميذ الناشىء على أنه خير ما يستطيع أن يفهمه ويدرك خباياه، ويقرأه العامل ونصف المتعلم على أنه رسالة لها على المشاعر سلطان قوى ، ولها فى الوجدان نفوذ غير محدود .

أولئكم جميعا — المثقف، والناشىء، والعامل، ونصف المتعلم — قد فهموا « المنفلوطى » فلم يملوه ، ولم يجتووه ، ولم يتقلهم حديثه ، أو تندمج كواهلهم آياته . . . فأى سحر فى هذا الرجل ؟ بل أى سحر فى أسلوبه حتى قدر له أن يطمئن إلى إعجاب الناس جميعاً ؟

الواقع أن روح الرجل كانت تخلع على رسائله ثوبا من الصدق ، وأن حياته الخاصة - بما فيها من كفاف - قد حققت لرسائله أسلوب الدقة ، ومهدت لها طريق الذيوع ، وتفحتها بما يشبه شذى الأزاهير وعبيق الورود .

والواقع أن هذه البساطة فى كل شىء ، قد مكنت للرجل أن يكون هادىء الأعصاب ، بعيداً عن شهوات النفس : كالحقد والحسد والموجدة والثورة والجمود ، ... الخ ؛ فهو إذن يلابس المنطق السليم ، ويجابه الذوق السليم ، وله من منطقه ما يزيد فى وجاهة آرائه ، وله من ذوقه - بعد هذا كله - ما يزيد فى أسلوبه روعة ، وفى معانيه دقة . !

والواقع أن أسلوب « المنفلوطى » كان أسلوب الرجل ذى العواطف الدقيقة ، لأنك تلمس فيه الجاذبية التى لا تتأتى إلا من موسيق رائعة ، ومن موسيق بارع . . . ففى هذا الأسلوب حدود تكاد تشبه حدود الشعر المقفى ، وفيه توقيع يكاد يشمل ما فى نغمات المطارب الصداح من توجيه متزن ، وتلوين مبرقش ، وتقلب رشيق ، وخاتمة لا تقع حين استقرارها إلا على قلوب السامعين.

فهم دقيق ...

وإلى هاتين الخاصتين — على مافيهما من خطر أيضا — تستقبلك فى المنفلوطى خاصة أخرى ، هى فهمه لما يدق على نظائره أن يفهموه . ففى قصة « الشاعر » ، وفى « ماجدولين » ، وفى « الضحية » ، وفى « الانتقام » ، وفى « الفضيلة » ، وفى « عبراته » أيضا ، فى هذه القصص مواقف غريبة عن جو الرجل الأزهرى ، بل هى غريبة عن جو المصريين ؛ ولكن المنفلوطى حين أدرك هذه القصص ليبعثها إلى قراء العربية موشاة بقلمه الفاره ، لم يكن من شأنه أن يدع ما يطلق القاصون عليه « عقدة القصة » ، وأن يترك هذه « العقدة » أو يوزعها توزيعاً لاحبكة فيه ... وإنما استطاع ، فى كثير من السهولة ، أن يترجم العواطف التى جمعتها هذه القصص جمعاً ، وأن يكون فى ترجمته لها غير متبلد ، وغير مسوق بشىء من العى ، أو شىء آخر من التعقيد .

وحى العاطفة ...

وإلى هاتيك الخصائص الثلاث — على ما فيها جميعاً من خطر — تستقبلك فى المنفلوطى خاصة أخرى ، هى جنوحه إلى وحى عواطفه ، دون أن يكون متاجراً بأسلوبه القيم ، أو شعوذه الدائع ، أو صيته البعيد ؛ بل دون أن يكون مهرجاً ، أو مهوشاً ، أو متابعاً لرغبة السوق ، وأطماع الوراقين ! ذلك أنه لم يترجم قصة تناقض عواطفه ، ولم يؤلف قصة تناقض عواطفه أيضاً ؛ ففى « الشاعر » رجل شقى هو « سيرانو دى برجراك » ، وفى « ماجدولين » رجل يأس بأس هو « استفن » ، وفى « اليتيم » — وهى قصة مؤلفة — إنسان حفلت المصائب على كاهله ، وفى أشتات الأقاصيص التى ألفها أبطال هم فى الحق أبطال البائسين ، جرت بأنبائهم يراعة المنفلوطى القادرة ، فسحت لهم دموعاً هى دموعه ، وأبقت لهم ذكراً هو ذكره .

ولو لم يكن كاتبنا يساير عواطفه حقاً ، أما كان من خيره أن يصطنع بقلمه وجوها غير هذه الوجوه القاتمة ، وأن يطرق أبوابا غير هذه الأبواب النقيلة الرتاج ؟.

أثر خصائصه

أما كيف أثرت هذه الخصائص فى الناس ، فما نحسب أن أحداً ينكر على المنفلوطى أنه جمع أسباب الخلد كله ؛ فما تزال كتبه ذائعة لها رواجها ولها انتشارها الدائم ، مما لم تر له شبيهاً فى مصر ، بل فى الشرق كله ؛ وما تزال كلماته حلية الرسائل ، بل ما تزال ثروة للمقتبسين ؛ وما تزال آراؤه هى الآراء الجديدة البكر ، وسيمضى عليها الزمن حقبة إثر حقبة دون أن يخبو ضوءها اللألاء ، ودون أن يهزل هيكلها القوى البناء .

حياته فى بيته

وإذا نحن بحثنا هذه الخصائص كلها على ضوء حياته الخاصة ، تمثلت لنا روح الألفة بين الرجل وبين إنتاجه ... ذلك أنه كان يعيش فى بيته سرى العاطفة ، إذا تقطبت أساريره فلن تتقطب إلا للحادث الفادح، وإذا انفرجت هذه الأسارير ، فلن تنفرج لما يستقبل من نعيم مادى، وإنما تنفرج لما ينشرح له صدره حين يقضى حاجة معوز، أو يدفع عن واحد من أصفيائه أذى.

أما البساطة فى العيش ، وأما التألب على الأناقة والبهرج والزخرف ، فقد كانا خير ما فى حياته الخاصة من صفات .

كيف كان يكتب ؟

كان الرجل حين يريد أن يكتب لا يقتنص بنات النثر ، ولا بنات القريض ، بالروضة الفينانة ، ولا بالكأس المترعة ، ولا بالأكلة الدسمة ، ولا بالمشاهد الرائعة ... وإنما كان يقتنص المعنى البكر ، والكلمة البكر ، بهذه الجلسة المتواضعة على السرير ، بينما يرقد أمامه إبريق من الشاى !

حياته وأسلوبه صورة من عاطفته

هى إذن حياة سهلة تشبه أسلوبه السهل ، أو أسلوب سهل يشبه حياته السهلة، ويمثل عاطفته ووجدانه أصدق تمثيل، وهى إذن حياة سرية بالعواطف الخيرة تشبه أسلوبه السرى بالعواطف الخيرة .

فكانت هذه الحياة مثار إعجاب وتقدير ، كما كان هذا الأسلوب مثار إعجاب وتقدير .

وإذا كانت هذه الحياة قد أثرت على صاحبها فى شىء، فالحق أن لها أثراً باقيا لا يبيد، هو أن « المنفلوطى » لم يجد له فى حياته عدواً أمعن له فى العداء ، وأطنب فى إيذائه والتألب عليه.

وإذا أنت علمت أن كاتبنا النابه قد لقى فى حياته من نباهة الذكر : ما يوفر له حسداً من الحاسدين ، وجماً من الناقدين المغرضين . . .

وإذا أنت علمت أن الحسد « الأدبى » كثيراً ما يولد الضغينة الشخصية اللاذعة المحرقة...

وإذا أنت علمت أن المنفلوطى لم يلق فى حياته وبعد موته من يتقول عليه ، أو يدفع إليه كلمة نابية ، أو حديثا جافيا ...

إذا أنت علمت ذلك كله ، أدركت فى شىء من السهولة ، أن الرجل كان يصدر عن عواطفه، ويستوحيها ويعمل فى ظلها ؛ ومن ثم يتحقق لك : أن أدب المنفلوطى كان كالمنفلوطى نفسه: صورة من عواطفه الخاصة ، وأن رسالة المنفلوطى رسالة صادقة حقة : هى خلاصة ما أوحت به عاطفته الخاصة .

ولهذا عاش من غير سر يفضح ، ومات كما عاش محفوفا بالتوقير والتقدير . ؟

عبد العزيز الاسلامبولى